

## الحلقة (٢٩)

نلتقي لنسترشد ونستهدي بهذا الكتاب العظيم القرآن الكريم، ذلك من خلال سورة جديدة، سورة قريبة من سورة البقرة، أما السورة التي معنا فهي سورة آل عمران، ولعلنا بنهاية حديثنا عن بعض آيات هذه السورة المدنية الشريفة الكريمة ننهي هذا اللقاء المبارك، على أمل بلقيا قادمة قريبة بإذنه سبحانه وتعالى.

**سورة آل عمران** هي كسورة البقرة **سورة مدنية**، بل هما سورتان تعالجان قضايا متفرقة، فأما **سورة البقرة** فلأنها أطول سورة في كتاب الله عز وجل، وفيها أطول آية في كتاب الله عز وجل، وفيها أعظم آية في كتاب الله عز وجل ألا وهي آية الكرسي، ونظراً لعظم السورة وطولها فقد عاجلت قضايا متفرقة، بل عاجلت قضايا موجودة في الأسرة الصغيرة والكبيرة وما إلى ذلك.

أما هذه **سورة آل عمران** فإنها عاجلت قضايا عامة، ولا نجد كبير ذكر للقضايا الخاصة بالأسرة وما إلى ذلك، وفي الصحيح: **(أن من قرأ سورتي البقرة وآل عمران جاءتا كالغيايتين أو الغمامتين - في بعض الروايات - تظلان صاحبها يوم القيامة . والحديث بما معناه).**

وهذه السورة سورة آل عمران حقيقة لعل أقوى محور فيها هو محور مجادلة أهل الكتاب، بل إن بعض الباحثين يرى ألا محور آخر إلا هذا.

ولعل سبب نزول الآيات الأولى من السورة يبين هذا، فنصارى نجران أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن أسئلة، فإذا بالرسول صلى الله عليه وسلم فإذا به يجيبهم، ويبدأ هذا من قوله تعالى: **{الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)}** إلى آخره، فإذا السورة نجتزئ منها بعض الآيات القلائل لنعيش معها ونسعد بها ونستهدي بنورها، لعلنا نخرج بفوائد جميلة وكل كتاب الله مميزات.

❁ **من أهم مميزات مدني القرآن:** أنه يناقش ويجادل أهل الكتاب، فإذا كان الأمر هكذا فسنجد هنا الآيات التي نعيش معها ونسعد بها نجد أن هناك حواراً ما بطريقة ما مع أهل الكتاب.

الآية التي معنا هي قول الله عز وجل: **(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) ٢٨** فإذا هذه الآية المدنية في سورة مدنية لقضية مستقبلية وقت نزول الكتاب العزيز وقت نزول هذه الآية، ولكننا وكما يقول جمهور المفسرين والأصوليين والمحدثين أيضاً **إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**، فإذا هذه الآية تدلنا من حيث إلقاء نظرة عاجلة عليها نتبين أن الآية كأنها تتنزل

الآن، ولا مشاحة في هذا، وقلنا خير مفسر للقرآن هو الزمن، القرآن الكريم ليس كتاب تسلية وقصص، بل هو كتاب عظة واعتبار وعمل وهداية وريادة وقيادة.

لم؟ لأنه هو المتأخر في النزول، نسخ ما قبله، رفع هذه الأمة لأنها أمة القيادة {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} هذه ريادة من الله عز وجل لا تشتري ولا تباع ولا يتحصل عليها بالذكاء، هذه هبة ومنة من الله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء على غيرها فضلاً من الله ورحمة، فضلاً من الله ومنة، وهذا هو فضله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء و{لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ}، و{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} إذن نعيش مع بعض جزئيات ومباحث هذه الآية فنقول: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}

❁ **لنقف على سبب النزول** اختلف في سبب نزول هذه الآية:

❶ قيل إنها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه، كان له حلفاء من اليهود، فأراد أن يستظهر بهم على العدو، وهذا القول رواه الأكثر، ومن رواه الطبري ومن أورده البغوي رحمهم الله تعالى. فإذا بن عبادة بن الصامت كان في الجاهلية ونحن نعلم أن عبادة رضي الله عنه هو أنصاري، فطالما أنه من الأنصار والأنصار كانوا في المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، فلا بد أنهم تعاملوا بشكل أو بآخر بحكم (المواطنة) الحديثة وحتى القديمة، تعني أن بقعة من الأرض تحوي أناسا يتفقون على الحياة العامة -يعني الأمور العامة- كأن يجمعهم لباس واحد، لغة واحدة، تصرفات اجتماعية واحدة، وما إلى ذلك.

فاليهود كانوا موجودون في المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وفي واقع الأمر يذهب المؤرخون إلى أن هؤلاء اليهود الذين كانوا في المدينة النبوية وقت مهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليها،

❷ قيل أنهم اليهود الذين تاهوا الذين كانوا في التيه عندما قالوا لموسى مسيئين الأدب كعادتهم {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} قيل إن هؤلاء هم أهل التيه أو بعض أهل التيه عادوا عندما قرؤوا الكتب السابقة، طبعاً هي محرفة، قرؤوا أن زمن نبي أطل أي قُرب، يُبعث في أرض النخلتين التي هي المدينة النبوية، فقليل هذا أو قاله بعض المحققين وأحسب أن الأمر صواباً، المهم أنهم كانوا موجودين وكانوا يتكلمون العربية بالإضافة إلى حفظهم العبرية بحكم لغتهم الأم، ونحن نعلم أنهم يتوقعون دائماً وهذه من الوجهة التاريخية الصرفة، لا يداخلون الناس ولا يتزاجون معهم، هم يرون أنهم فوق، وأما الآخرون فهم تحت، من أجل ذلك عبادة بن الصامت لا يستنكر هذا لأنه بحكم

التداخل والتقارب والمواطنة هذا سبب قيل.

❶ **السبب الثاني:** أنها نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتوالون اليهود، أي يتولون اليهود، أرى أن هذا السبب ليس بجديد لأن عبد الله بن أبي بن سلول هو أشد من اليهود هو رأس النفاق، فإذا كان الأمر كذلك فنحن أوردناه للمعرفة، وإلا فلا يتصور أن يكون سبب النزول، ولاحظوا أن الآية استهلكت بالإيمان {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ} وعبد الله بن أبي بن سلول ليس بمؤمن كما هو معروف.

❷ **السبب الثالث:** أنها نزلت في قوم من اليهود كان بينهم وبين بعض الأنصار حلف، وهذا السبب قد يضم إلى السبب الأول الذي هو ما قيل عن عبادة بن الصامت رضوان الله تعالى عليه.

❸ **السبب الرابع:** أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، هذا الصحابي الجليل رضوان الله تعالى عليه. وعلى كل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وحسبنا، ولكن الذي رواه الأكثر كما قلت سابقا أنها نزلت في عبادة بن الصامت رضوان الله تعالى عليه هذا سبب النزول.

#### ❖ مناسبة الآية لما قبلها:

طبعاً نستحضر ما قبلها قول الله عز وجل: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} في هذه الآيات التي سبقت هذه، لما ذكر الله عز وجل أنه هو مالك كل شيء وأنه المتصرف في كل شيء سبحانه، إذن الدنيا بما فيها وما عليها وما في الآخرة وكل شيء الله عز وجل هو خالقه {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} طالما الأمر كذلك فهذه الآية جاءت عقب تلك، وكما يقول بعض المفسرين كالرازي، وانظروا كما قلنا قبلاً إن الآية سياق الآية واحد وهو محورها هو محاوره نصارى نجران، كأن الله عز وجل يرد على أولئك، عندما غضبوا أن النبوة خرجت عن أهل الكتاب، وعن بني إسرائيل، وأحسب أن الرازي رحمه الله كان مصيباً.

ف{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ} فإن أعظم من الملك: النبوة، إذن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضع وجعل الرسالة في محمد صلى الله عليه وسلم خلافاً لما كان في السابق، وهذه حكمته، لا يستطيع أحد أن يقول كيف ولم، لأن النبوة ظاهرة لا يستطيع الإنسان دفعها ولا يستطيع جلبها، فشيء من الله عز وجل {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}.

إذن المناسبة: أنه تعالى لما ذكر ما يجب على المؤمنين من معاملة الخلق وكانت الآيات السابقة في الكفار، فثبوا عن موالاتهم وأمروا بالرغبة فيما عنده وعند أوليائه دون أعدائه، إذ هو تعالى مالك الملك سبحانه، هذا وجه من وجوه المناسبة بين الآيات وأختها السابقة.

#### ❖ بعض المفردات:

١. {مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} المفتوح دائماً الإعراب متعلقة بقوله: {لَا يَتَّخِذُ} و{مِن} لا ابتداء الغاية.

٢. {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ} {ذَلِكَ} إشارة إلى اتخاذهم الأولياء، وهذا يدل على المبالغة في ترك الموالاة، إذن نفى عن متوليهم أن يكونوا في شيء من الله، وفي الكلام مضاف محذوف وتقديره: فليس من ولاية الله في شيء، على نحو ما يقول القرطبي، وأسأل القرية أي بحذف المضاف، {مِنَ اللَّهِ} في موضع نصب على الحال، لأنه لو تأخر لكان صفة لشيء، والتقدير: فليس في شيء من ولاية الله.

٣. {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} الاستثناء مفرغ من المفعول له، على معنى: لا يتخذوا كافراً ولياً شيئاً من الأشياء إلا لسبب التقيا، فيجوز إظهار الموالاة باللفظ والفعل، دون ما ينعقد عليه القلب والضمير. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (التقية المشار إليها مداراة ظاهرة)، طبعاً التقية لا يفهم منها أنها على طول الخط، لا، إنما لفترة زمنية، مع من؟ مع الكفرة، يعني يمكننا القول بتعبيرنا العصري إن العلاقات بين الأفراد وبين الدول تملي على المؤمن أن يساير الأمور وفق مصطلح العلاقات العامة، فالعلاقات العامة تعني أن هناك مصلحة مشتركة والعالم يعيش هكذا، بل عاش هكذا، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ارتهن صلى الله عليه وسلم درعه عند يهودي، فإذا المعاملات الإنسانية لا ينكرها الإسلام، ولا ينكرها القرآن، بل يشد عليها، ونحن نتفق على أننا أمة حضارة، فإذا كنا كذلك ونحن كذلك بالرغم مما نلاحظ، فلا بأس أن نعطي لأولئك وأولاء صورة حضارية سلوكية عن ديننا الحنيف، هم يفسرونها على اعتبار أنها ضمن العلاقات العامة، أنا أفسرها وأنت تفسرها والآخر يفسرها على أن هذه هي رسالتنا، الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (بلغوا عني ولو آية)، إذن وأنت صاحب حضارة، {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} فطالما الأمر كذلك فلا يكون الإنسان متداخل معهم على جهة المحبة والتسليم وأنهم هم القوم، لا، إنما ضمن العلاقات العامة فلا إشكال، إنها المنفعة الإنسانية، إذن يجب علينا أن نأخذ بهذه الآية ونطبقها.

❁ معنى الآية: إذا كان الله عز وجل هو وحده مالك الملك ويعز ويذل ويبيد الخير والخلق والرزق، فلا يصح للمؤمنين أن يجعلوا لغير المؤمنين ولاية عليهم، متجاوزين معاونه المؤمنين، لأن في ذلك خذلان للدين وإيذاء لأهله وإضعافاً للولاية الإسلامية، ومن يسلك هذا المسلك فليس من ولاية الله مالك الملك في شيء، ولا يرضى مؤمن ولا يتهم إلا أن يكون مضطراً لذلك، فيتقي أذاهم بإظهار الولاء لهم، وعلى المؤمنين أن يكونوا في الولاية الإسلامية دائماً، وهي ولاية الله عز وجل، وليحذروا أن يخرجوا إلى غير ولايته فيحل عليهم عقابه بنفسه بكتابة الذلة عليهم بعد العزة، وإليه وحده المصير فلا مفر من سلطانه في الدنيا ولا في الآخرة.

إذن {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} كما يقول الزجاج على معنى -ولله المثل الأعلى-: (تراني أحذرك) {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} أي يحذركم سبحانه وتعالى عقابه وعذابه وغضبه ونقمته، فليس بعد هذا التحذير تحذير كما يقول الواحدي، لأنه هو سبحانه وتعالى يقول: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} لأنه هو سبحانه يحذرننا من أن نوالي غير المؤمنين الولاية الشرعية، لا المصلحة الآنية الاقتصادية، لا المصلحة

الإنسانية، إنما الولاية التي فيها المحبة، التي فيها التناصر، التي فيها التعاضد، هذه لا تكون إلا لأخيك المؤمن، لأخيك المسلم، أما أخوك في الإنسانية فأنت وإياه سواء في الإنسانية، وأنت غير ناس أنك صاحب حضارة، صاحب ريادة، فطالما الأمر كذلك فلا بأس ولا إشكال من إظهار حضارة دينك في السلوك قبلاً، وفي فلسفة الأحكام ثانياً، فلا إشكال في هذا كله.